الفصل الأول
التوسع في المستويين الصوتي والصرفي

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: المستوى الصوتي.

المبحث الثاني: المستوى الصرفي.

أولاً: الإتباعُ الحَركيُّ:

عَالَجَهُ سيبويه تَحتَ باب ((مَا تُكْسَرُ فِيهِ الهَاءُ الَّتي هِي عَلامةُ الإضْمَار))[1] وسمَّاه الإتباع، وعَنَى بِهِ مَيْل الحَركاتِ إلى التَّماثُل، ومِن هُنا، يُعَدُّ الإتباع ضَرْبًا مِن ضُروبِ المُمَاثلة، والَّتي تُعْرَفُ عِنْدَ المُحْدَثِينَ بـ(Assimilation).

عَالَجَ طائفةً مِنَ المَسائِل الصَّوتيّة، كَالمواضِع الَّتي كُسِرتْ فِيها هَاءُ الضمير في أمثال: بِهِ، وَلَدَيْهِ، فأشار إلى قَوْل أَهْلِ الحِجَاز: ((مَرَرْتُ بِهُو قبل)) و((لَدَيْهُو مَالٌ)) ثُمَّ أَشَار إلى قِراءَة: ﴿فخسفنا بِهُوبدارِهُوالأرض﴾[2].

ثم علل ذلك بقوله: (ومن قال: ((وَبِدَارِ هُو الأرضَ)) قال: ((عَلَيْهُمُو مَالٌ وبِهُمُو ذَلك)) وقَالَ بَعضُهم: ((عَلَيْهِمُو)) أَتْبَعَ الياءَ مَا أَشْبَهَهَا)[3].

وفي ضوء الإتباع الحركي عالج سيبويه ما جاء في لَهجة بَكْر بن وائل من قَولِهم: (((مِنْ أَحْلَامِكِم)) و((بِكِم)) شَبَّهَهَا بالهَاء لأنَّها عَلَمُ إضْمَارٍ وَقَد وَقَعَتْ بعدَ الكَسْرةِ، فأَتْبَعَ الكسرةَ الكَسْرة حيثُ كانَتْ حَرْفَ إضْمَارٍ، وكانَ أخفَّ عَلَيْهِم مِنْ أَنْ يَضُمَّ بعدَ أَنْ يَكْسِر)[4]، ومَعنى هذا أنَّه ذَهَب إلى قِياسِ ((الكَاف)) في ((أحلامِكِم)) و((بِكِم)) -بِتَوالِي الكَسْرَتَيْنِ بَعد المِيْم والكَاف- على الهَاء في ((أَحْلامِهِم)) و((بِهِم)) لأنَّ كُلاًّ مِنْهُما عَلَمُ الإضْمَارِ.

وَعَقَد السيوطيُّ للإتْباع باباً في ((الأشْباهِ والنَّظائِر)) ذَكَر مِنْه أنواعاً كثيرةً وكانَ أَوَّل مَا ذكر مِنهُ إتْباع حَرَكةِ الكَلِمةِ المُعْرَبة لِحَرَكةِ أوّل الكَلِمة بَعْدَها كَقِراءةِ مَن قَرأ: ((الْحَمْدِ لِلَّهِ))[5] بكسر الدّال-إتباعاً لحركة الدّال، وذَكَر مِنْهُ: إتْبَاعَ حَرَكَةِ أَوّل الكَلمةِ لِحَركةِ آخِر الكَلِمة قَبْلَها كَقِراءَةِ مَن قَرأ ((الحمدُ للهِ))[6] بِضَمِّ اللامِ إتباعاً لحركة الدال[7].

---

(١) الكتاب ٢/٢٩٣، ٤/١٩٥هـ.
(٢) القصص ٨١.
(٣) الكتاب ٢/٢٩٤ب، ٤/١٩٦هـ.
(٤) الكتاب ٢/٢٩٤ب، ٤/١٩٧هـ.
(٥) الفاتحة١ وبها قرأ الحسن البصري، ورؤبة، ورويت عن زيد بن علي، وهي لغة تميم وبعض غطفان، ينتمون الأول الثاني للتجانس.أنظر: القراءات الشاذة ١ وإتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربع عشرة ١٢٢.
(٦) الفاتحة، ١، وبها قرأ: إبراهيم بن أبي عبلة، أنظر: القراءات الشاذة ١.
(٧) أنظر: الأشباه والنظائر في النحو ١/٢٩.

ثانياً: الإِمَالَةُ والتَّفخِيم:

الإِمَالَةُ: ((عُدولٌ بالأَلِفِ عَن اسْتِوائِهِ وجُنُوحٌ بِهِ إِلَى الياءِ فَيَصِيرُ مَخْرَجُهُ بَيْنَ مَخْرَجِ الأَلِفِ المُفَخَّمَةِ وَبَيْنَ مَخْرَجِ الياءِ))[1] وَهُوَ المَقْصُودُ بِالإِمَالَةِ عِنْدَ إِطْلاقِهِ فِي كُتُبِ اللُّغَةِ والقِراءاتِ، وَيُقابِلُهَا الفَتْحُ.

والفَرْقُ الصَّوْتِيُّ بَيْنَ الإِمَالَةِ والفَتْحِ، أَنَّ الأَلِفَ المُمَالَةَ صَوْتٌ لَيِّنٌ نِصْفٌ ضَيِّقٌ، أَمَّا الأَلِفُ غَيْرُ المُمَالَةِ -فِي حَالَةِ الفَتْحِ- فَصَوْتٌ لَيِّنٌ نِصْفٌ مُتَّسِعٌ[2]. وذَكَرَ سِيبَوَيْهِ أَنَّ الخَلِيلَ سَمَّاها (الإِجْنَاحَ)[3].

وَقَد ذَكَرَ النُّحاةُ أَنَّ الغَرَضَ مِنَ الإِمالةِ تَقْرِيبُ الأَلِفِ نَحوَ الياءِ والفَتحَةِ نحوَ الكَسْرَةِ فَهِيَ تَقْرِيبُ الصَّوْتِ مِنَ الصَّوْتِ[4].

وَلَم يَكْتَفِ النَّحْوِيُّونَ وَلاَ القُرَّاءُ بِمُعَالَجَةِ كَوْنِ الإِمالة خَاصَّةً بِجُنُوحِ الأَلِفِ صَوْبَ الياءِ، بَل أَشَارُوا إِلى حَالاتٍ ثَلاثٍ أُخَرَ هِيَ:

١ - الأَلِفُ المُمَالَةُ نَحْوَ الضَّمَّةِ مِنْ أَمْثَال: الصَّلوة، والزَّكوة.

٢ - الكَسْرَةُ المَشُوبَةُ بالضَّمَّةِ مِنْ أَمْثَالِ: (قِيل) و(بِيع) و(غِيض) مِمَّا بُنِي لِلْمَجْهُولِ مِنَ الأَفْعالِ، ويُعْرَفُ عِنْدَ النُّحَاةِ بالإِشْمَامِ.

٣ - الضَّمَّةُ المَشُوبَةُ بالكَسْرَةِ مِنْ أَمْثَال (بُوعَ).

وَهذه هِيَ حَالاتُ الإِمَالَةِ، فَإِذا أَضَفْنَا إِلَيْهَا الوَجْهَ الأَوَّلَ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ وهو عُدُولُ بالأَلِفِ إِلى الياءِ الَّذِي يُسَمَّى الإِمَالَةَ المَحْضَةَ، أَصْبَحَتْ أربعةً والحَالاتُ الأولى هِيَ الشَّائِعَةُ والأَخِيرَة قَلِيلَةُ الشُّيوعِ.

وَلَمَّا كَانَتِ الإِمَالَةُ مِنَ العَادَاتِ الكَلامِيَّةِ، وَظَاهِرَةً صَوْتِيَّةً مِن ظَواهِرِ المُمَاثَلَةِ، فَقَد اهْتَمَّ النُّحَاةُ بالإِشَارَةِ إِلى أَهَمِّ القَبَائِلِ المُمِيلَةِ عِنْدَ العَرَبِ، واهْتَمَّ أَهْلُ القِرَاءاتِ، بالإِشَارَةِ إِلى المُمِيلِينَ مِنَ القُرَّاءِ وَعَامَّةِ أَهْلِ نَجْدٍ مِنْ تَمِيمٍ وَأَسَدٍ وَقَيْسٍ، وأَكْثَرُ اليَمَنِ يُمِيلُونَ، لأَنَّ الإِمَالَةَ غَالِبَةٌ فِي أَلْسِنَتِهِم فِي أَكْثَرِ الكَلامِ[5].

---

(١) شرح المفصل ٥٤/٩، وانظر: الظواهر الصوتية والصرفية والنحوية في قراءة عاصم الجحدري البصري (ت١٢٨هـ) ٥٢.

(٢) أنظر: في البحث الصوتي عند العرب ٧٨.

(٣) الكتاب ٢٧٨/٣، وانظر: في البحث الصوتي ٧٨.

(٤) أنظر: الكتاب ١١٧/٤، الخصائص ١٤١/٢، الكشف ١٦٨/١.

(٥) أنظر. شرح المفصل ٥٤/٩، وهمع الهوامع ٢٠٤/٢، وانظر: لهجة تميم وأثرها في العربية الموحدة ١٢٧.

وَلَمَّا كَانَتْ حَقِيقَةُ الإِمَالَةِ هِيَ أَنْ تُقَرِّبَ الأَلِفَ نَحْوَ الياء أَو أَنْ تَنْحُوَ بِهَا نَحْوَ الكَسْرةِ، فإنَّ سيبويه عَلَّلَ هذه الظَّاهِرةَ على أَنَّهَا مِن قَبيلِ المُشَاكَلَةِ بَيْنَ الحَرَكَاتِ إذْ قَال: (فالأَلِفُ قَد تُشْبِهُ الياءَ، فأَرَادوا أَنْ يُقَرِّبُوهَا مِنْهَا)[1].

وَبالنَّظَرِ إلى الأَسَالِيبِ العَرَبِيَّة وفُنُونِ القَوْلِ في الكَلامِ العَرَبِيِّ نَلْحَظُ أَنَّ الإِمَالَةَ ضَرْبٌ مِن ضُروبِ التَّوسُّعِ في الكَلامِ، وَسِمَةٌ مِنْ سِمَاتِ التَّصَرُّفِ فِي التَّعبيرِ، وَتِلْكَ مَزِيَّةٌ مِن مَزَايا لُغتِنا الشَّاعِرةِ القَادِرةِ عَلى الْخَلْقِ وَالإِبْداعِ وَالتَّصَرُّفِ فِي فُنُونِ القَوْلِ.

إنَّ القُدَمَاءَ لَمْ يَغْفَلُوا عَنْ تَحْلِيلِ هذهِ الظَّاهِرةِ الرَّاقِيَةِ مِنْ ظَوَاهِرِ العَرَبِيَّةِ، وَلَعَلَّ ابْنَ جنِّي مِن أَوَائِلِ الَّذِينَ أَشَارُوا إلى أَنَّ «الإِمَالَةَ والتَّفْخِيمَ فِي حُروفِ المُعْجَمِ ضَرْبٌ مِنَ الاتِّسَاعِ وَذَلِكَ أَنَّ الإِمَالَةَ والتَّفْخِيمَ ضَرْبَانِ مِنْ ضُروبِ التَّصَرُّفِ...» كَمَا أَشَارَ إلى أَنَّ هذهِ الحُروف جَوامِدُ لَا حَظَّ لَهَا في التَّصَرُّفِ لأَنَّهَا كَـ(مَا) وَ(لَا) وإِنَّمَا أَتَاهَا ذلكَ مِن قِبَلِ أَنَّهَا فَاقَتْ مَوْضُعَهَا مِنَ الهِجَاءِ فَصَارَتْ أَسْمَاءً كَقَولِنَا: (الهَاء) حَرْفٌ هَاوٍ..فَلَمَّا كَانَتْ تَفَارِقُ كَوْنَها هِجَاء إلى الأَسْمِيَّةِ دَخَلَها ضَرْبٌ مِنَ القُوَّةِ فَتَصَرَّفَتْ فَحَمَلَتْ الإِمَالَةَ والتَّفْخِيمَ[2] تَوَسُّعاً وَمَجَازاً.

١ – الإمالة في كتاب سيبويه:

الإِمَالَةُ ظَاهِرَةٌ صَوْتِيَّةٌ رَاقِيَةٌ مِن ظَوَاهِرِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ وَهِي مِنْ ظَوَاهِرِ المُمَاثَلَةِ Assimilation، وَالَّتِي تَهْتَمُّ بِتَأْثِيرِ الأَصْواتِ المُتَجَاوِرَةِ فِي الكَلِمَاتِ والجُمَل، وَمَيْلِهَا إلى الاتِّفَاقِ فِي المَخَارِجِ والصِّفَاتِ نُزُوعاً إلى الانْسِجَامِ الصَّوْتِيِّ، واقْتِصَاداً فِي الجَهْدِ الَّذِي يَبْذُلُهُ المُتَكَلِّمُ.

وَعَرَفَ التُّرْسُ الصَّوتِيُّ عِنْدَ العَرَبِ قَانُونَ المُمَاثَلَةِ، وَسَمَّاهُ النُّحَاةُ بِمُسَمَّيَاتٍ مِنْهَا مَا سَمَّاهُ سيبويه: بِالْمُضَارَعَةِ والتَّقْرِيبِ[3]، وَسَمَّاهُ ابْنُ يَعِيش: بِتَجَانُسِ الصَّوْتِ وَتَشَاكُلِهِ[4]، وَسَمَّاهُ ابْنُ الحَاجِب: المُنَاسَبَةَ[5].

---

(١) الكتاب ٢/٢٥٩ب، ٤/١١٧هـ.

(٢) المحتسب ٢/٣٦، وانظر: الاتساع في اللغة عند ابن جنى ١٦٧.

(٣) الكتاب ٢/٢٥٩ ب

(٤) شرح المفصل ١٠/٣١٨.

(٥) شرح الشافية ٣/٤.

وَتُعَدُّ (الإِمَالَةُ) إِحْدَى ظَوَاهِرِ المُمَاثَلَةِ الَّتِي تَنَاوَلَهَا سيبويه فِي كِتَابِهِ، وَالَّتِي أَشَارَ إِلَى أَنَّ الأَلِفَ غَيْرِ المُمَالَةِ أَصْلٌ وَالمُمَالَةِ فَرْعٌ.

كَمَا أَنَّ الإِمَالَةَ إِحْدَى الظَّوَاهِرِ الخَاصَّةِ بِنُطْقِ الفَتْحَةِ الطَّوِيلَةِ نُطْقًا يَجْعَلُهَا بَيْنَ الفَتْحَةِ الصَّرِيحَةِ والكَسْرَةِ الصَّرِيحَةِ.

وَوَجَّهَ سيبويه هذا القَوْل في كِتَابِهِ فَقَالَ: ((الأَلِفُ تُمَالُ إذا كَانَ بَعْدَهَا حَرْفٌ مَكْسُورٌ، وَذَلِكَ قَوْلُكَ: عَابِدٌ، وَعَالِمٌ، وَمَسَاجِدُ، وَمَفَاتِيحُ... وَإِنَّمَا أَمَالُوهَا لِلْكَسْرَةِ الَّتِي بَعْدَهَا، أَرَادُوا أَنْ يُقَرِّبُوهَا مِنْهَا))[1].

فَالإِمَالَةُ فِي الأَمْثِلَةِ الَّتِي ذَكَرَهَا سيبويه وَهِي: عَالِمٌ وَعَابِدٌ، تَعْنِي نُطْقَ الأَلِفِ الطَّوِيلَةِ بِصُورَةٍ تَجْعَلُهَا قَرِيبَةً -نُطْقًا- مِنَ الْكَسْرَةِ الَّتِي تَلِي اللاَمَ وَالياءَ، وَهَذا يَعْنِي أَنَّ الفَتْحَةَ الطَّوِيلَةَ المُمَالَةَ إِنَّمَا تَأْتِي فِي مُحِيطٍ صَوْتِيٍّ بَعَيْنِهِ دُونَ غَيْرِهِ، فَالفَتْحَةُ الطَّوِيلَةُ فِي لَهْجَةِ الحِجَازِ لَهَا صُورَتَانِ صُورَةٌ بِلَا إِمَالَةٍ، وَصُورَةٌ بِالإِمَالَةِ، وَكِلْتَاهُمَا وَحْدَةٌ صَوْتِيَّةٌ واحِدَةٌ وَكَانَتْ لَهْجَةُ الحِجَازِ القَدِيمَةَ لَا تَعْرِفُ الإِمَالَةَ.

أَمَّا مِثَالُ سيبويه الأَخِير وَهُوَ (مَفَاتِيحُ)؛ فَالإِمَالَةُ فِي تَفْسِيرِهِ أَثَرٌ لِلْكَسْرَةِ، وَكَأَنَّهُ تَصَوَّرَ -فِي كَلِمَةِ مَفَاتِيحَ- الْكَسْرَةَ شَيْئًا وَالياءَ شَيْئًا آخَرَ. والوَاقِعِ أَنَّ نَظْرَةَ النَّحْوِيِّينَ العَرَبِ لِلْخَطِّ جَعَلَتْهُمْ يَتَصَوَّرُونَ أَنَّ: مَا نُطْلِقُ عَلَيهِ كَسْرَةً طَوِيلَةً هُوَ كَسْرَةٌ ثُمَّ يَاءٌ سَاكِنَةٌ. وَلِهَذا لَمْ يُلاحِظْ سيبويه أَنَّ الإِمَالَةَ حَدَثَتْ كَأَثَرٍ لِمَدِّ الياءِ (الكَسْرَةِ الطَّوِيلَةِ) وَاكتفى بِأَنْ وَجَدَ الكَسْرَةَ هُنَا مَرَّةً وَهُنَاكَ أُخْرَى.

وَقَدْ عَلَّلَ سيبويه ظَاهِرَةَ الإِمَالَةِ بِالْتِمَاسِ الْخِفَّةِ، وَهَذا الرَّأْيُ هُوَ السَائِدُ فِي عِلْمِ اللُّغَةِ إِلَى عَهْدٍ قَرِيبٍ، حَيْثُ فَسَّرُوا كُلَّ تَطَوُّرٍ يَحْصُلُ وفي كل اللغات تقريباً وَعَزَوْهُ إِلَى عَامِلِ السُّهُولَةِ والْخِفَّةِ[2].

وَذَهَبَ بَعْضُ البَاحِثِينَ[3] إِلَى عَدَمِ وجُودِ فَتْحَةٍ فِي نَحْوِ: كِتَابٍ وَعَالِمٍ وَهُدًى، وإِنَّمَا جَاءَ كُلٌّ مِنَ (التَّاءِ) فِي كِتَابٍ، وَ(الْعَيْنِ) فِي عَالِمٍ، وَ(الْدَالِ) فِي هُدًى مُحَرَّكَةً بِأَلِفِ الْمَدِّ وَحْدَهَا[4].

وَالَّذِي يَتَتَبَّعُ كَلَامَ سيبويه لَا يَجِدُ أَثَرًا لِكَلامِهِ عَنِ الفَتْحَةِ وإِنَّمَا الَّذِي يُمَالُ عِنْدَهُ هُوَ الأَلِفُ وَحْدَهُ فِي مِثْلِ: عَابِدٍ، وَعَالِمٍ، وَمَسَاجِدَ وَمَفَاتِيحَ، وَعُذَافِرٌ، وَهَابِيلُ[5]، وَكذلك: عِمَادٍ وَكِلَابٍ[6].

---

(١) الكتاب ٢/٢٥٩ب.

(٢) الكتاب ٢/٢٥٩ب.

(٣) د. عبد الفتاح إسماعيل شلبي.

(٤) أنظر: الإمالة في القراءات واللهجات العربية ٥٢.

(٥) الكتاب ٢/٢٥٩ب.

(٦) الكتاب ٢/٢٥٩ب.

وَقَالَ كَذَلِكَ: ((وتقول الأسْوِداد فَيُمِيلُ الأَلِفَ هٰهُنا مَنْ أَمَالَهَا فِي الْفِعَالِ))[1]، وَكَذلِكَ فِي مِثْلِ: خَافَ وَطَابَ[2]، وَمَرَرْتُ بِبابِهِ[3].

كُلُّ ذَلِكَ ذَكَرَهُ سيبويه فِي كِتَابِهِ تَحْتَ عُنْوَانِ: ((هَذا بَاب مَا تُمَال فِيهِ الأَلِفَاتُ))[4].

٢ – أسباب الإمالة عند سيبويه:

لَمْ يَعْقِدْ سيبويه باباً خَاصّاً بِأَسْبَابِ الإِمَالَةِ فِي كِتَابِهِ وَقَدْ جَاءَ الكَلامُ عَنِ الإِمَالَةِ مُفَرَّقاً فِي أَكْثَرَ مِن مَكَانٍ، حَيْثُ إِنَّ سيبويه كَعَادَتِهِ يَنْتَقِلُ مِنْ كَلامٍ إِلى كَلامٍ آخَرَ دُونَ أَنْ يُشْبِعَ الأَوَّلَ –دِرَاسةً– فِي مَكَانِهِ، وَلٰكِنَّكَ سَتَجِدُ بَعْدَ صَفَحَاتٍ –تَطُولُ أَو تَقْصُرُ– أَنَّ سيبويه يَسْتَدْعِي المُفْرَدَةَ الأُولى فَيُقَلِّبُهَا دِراسةً وتَمْحِيصاً، حَتّى لَا يَكَادُ يَتْرُكُ لِمَنْ يَأْتِي بَعْدَهُ شَيْئاً ذا بَالٍ.

وَلَمَّا كَانَتْ طَبِيعَةُ بَحْثِنَا المُتَوَاضِعِ هٰذا تَقْتَضِي الانْتِقَاءَ والاخْتِصَارَ لَا الإِسْهَابَ والتَّطْوِيلَ، لِذا سأُجْمِلُ بَعْضَ إِمالاتِ (الكِتَاب) وَلَا أَسْتَقْصِيهَا مَخَافَةَ التَّطْوِيلِ وَالتَّكْرَارِ وَسَأَسْتَخْرِجُ أَمْثِلَةَ سيبويه وَكَيْفَ عَلَّلَ لَهَا، والْجَدولُ الآتِي يُوضِّحُ ذَلِكَ:

	أمثلة سيبويه	القاعدة في كتاب سيبويه	التعليل
١	عَالِمٌ، وَعَالِمٌ، وَمَسَاجِدُ، وَمَفَاتِيحُ، وَعَذَافِرُ، وَهَابِيلُ[5].	فَالأَلِفُ تُمَال إِذَا كَانَ بَعْدَهَا حَرْفٌ مَكْسُورٌ.	لِمُقَارَبَةِ الكَسْرَةِ الَّتِي بَعْدَهَا
٢	مَرَرْتُ بِبِدِيدٍ[6]، أَخَذْتُ مِنْ مَالِهِ.	وَمِمَّا يُمِيلُونَ أَلِفَهُ	شَبَّهُوهُ بِفَاعِلٍ، نَحْوُ: كَتِبٍ وَسَاجِدٍ.
٣	عِمَادٌ وَكِلَابٌ[7].	تُمَالُ الأَلِفُ إِذَا كَانَ بَيْنَ أَوَّلِ حَرْفٍ مِنَ الكَلِمَةِ وَبَيْنَ الأَلِفِ حَرْفٌ مُتَحَرِّكٌ مَكْسُورٌ.	كَسْرُ الحَرْفِ الأَوَّلِ.
٤	مِرْبِلٌ، وَشِمْلِلٌ[8].	إِذَا كَانَ بَيْنَ أَوَّلِ حَرْفٍ وَبَيْنَ الأَلِفِ حَرْفَانِ، الأَوَّلُ مِنْهُمَا سَاكِنٌ، لأَنَّ السَّاكِنَ لَيْسَ بِحَاجِزٍ قَوِيٍّ.	كَسْرُ الحَرْفِ الأَوَّلِ.

---

(١) الكتاب ٢/٢٦٠ب، ٤ / ١١٨ هـ

(٢) الكتاب ٢/٢٦١ب.

(٣) الكتاب ٢/٢٦١ب.

(٤) الكتاب ٢/٢٥٩ب.

(٥) الكتاب ٢/٢٥٩ب.

(٦) الكتاب ٢/٢٦١ب.

(٧) الكتاب ٢/٢٥٩ب.

(٨) الكتاب ٢/٢٥٩ب.

وَقَد ذَكَرَ سيبويه غَيْرَ ذلِكَ كَثِيراً، حيثُ قَالَ: ((وَمِمَّا تُمَالُ أَلِفُهُ قَوْلُهم: كَيَّالٌ وَبَيَّاعٌ، وإِنَّهُم فَعَلُوا هَذا لأَنَّ قَبْلَهَا ياءً فَصَارَتْ بِمَنْزِلَةِ الكَسْرَةِ))[1]، وَقَد ذَكَرَ أَنَّ مَا أُمِيلَتْ للياء: شَيْبَانُ، وَقَيْسُ عَيْلاَنَ، وَغَيْلاَنُ[2]، وَمِمَّا جَعلوا كَسْرَتَهُ كَالياءِ أَمَالُوهُ لِذلِكَ: (دِرْهَمَانِ) وَ(وَرَأَيْتُ قِرْحاً) وَ(وَرَأَيْتُ عِلْماً)[3].

وَآخِرُ مَا وَقَفْنَا عَليهِ مِنْ عِلَلِ الإِمَالاتِ هُوَ الإِمَالَةُ لِلإِمَالَةِ حَيْثُ تَجْتَمِعُ فِي الكَلِمَةِ الوَاحِدةِ إِمَالَتَانِ، وَقَد ذَكَرَها سيبويه وَعَلَّلَ لَهَا فَقَالَ: ((وَقَالَ نَاسٌ رَأَيْتُ عِمَاداً فَأَمَالُوا لِلإِمَالَةِ كَمَا أَمَالُوا لِلْكَسْرَةِ))[4].

وَبِذَا أَكْتَفِي بِمَا أَوْرَدْتُهُ مِن إِمَالاتٍ مُعَلَّلَةٍ فِي كِتَابِ سيبويه، وَلَنْ أَتَعَرَّضَ لِلإِمَالاتِ الَّتِي وَرَدَتْ عَنِ الْعَرَبِ عَلى ضَعْفٍ أَوْ شُذوذٍ لأَنَّنِي سَأَتَنَاوَلُ جَانِباً مِنْهَا فِي ((مَوانِعِ الإِمَالَةِ)) إِنْ شَاءَ اللهُ.

٣ - موانع الإمالة في كتاب سيبويه:

عَقَدَ سيبويه باباً فِيمَا يَمْتَنِعُ مِنَ الإِمَالَةِ[5] فِي كِتَابِهِ وَضَّحَ لَنا فِيهِ مَا يَمْتَنِعُ مِنَ الإِمَالَةِ عِنْدَ الْعَرَبِ، وَتَمَكَّنَا -بِالاسْتِقْرَاءِ وَالتَّتَبُّعِ- أَنْ نَعْزُوَ مَوانِعَ الإِمَالَةِ إِلَى أَمْرَيْنِ، أَوْ أَنَّ الإِمَالَةَ لاَ تَرِدُ فِي شَيْئَيْنِ:

الأَوَّلُ: فِي أَصْواتِ الإِطْبَاقِ؛ (الصَّاد والضَّاد والطَّاء والظَّاء والقَاف) وَاثْنَيْنِ مِنْ أَصْواتِ الْحَلْقِ (الخَاء والغَيْن).

الثاني: لاَ تَرِدُ فِي بَعْضِ الأَدَواتِ مِثْل: حَتَّى، وَأَمَّا، وَأَنَى، وَلاَ، وَمَا، وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ الإِمَالَةَ تَرِدُ فِي الاسْمِ وَالْفِعْلِ وَتَمْتَنِعُ فِي الْحَرْفِ.

---

(١) الكتاب ٢/٢٦١ب.

(٢) الكتاب ٢/٢٦١ب.

(٣) الكتاب ٢/٢٦١ب.

(٤) الكتاب ٢/٢٦٢ب.

(٥) الكتاب ٢/٢٦٤ب، والظر: فهارس كتاب سيبويه ٥٩٢.

وَعَلَّلَ سيبويه مَانِعَ الإِمَالَةِ فِي الأَصْوَاتِ المُطْبَقَةِ وَالْحَلْقِيَّةِ عِنْدَ مُجَاوَرَاتِهَا الأَلِفَ -إِذَا اسْتَبْعَدْنَا (الحَاءَ وَالْغَيْنَ) كَوْنَهَا أَصْوَاتاً مُسْتَعْلِيَةً إِلَى الحَنَكِ الأَعْلَى- وَلَمَّا كَانَتِ الأَلِفُ تَسْتَعْلِي إِلَيْهِ عِنْدَ خُرُوجِهَا إِلَى الإِمَالَةِ ((كَانَ بُعْدٌ مِنْ وَجْهٍ وَاحِدٍ أَخَفَّ عَلَيْهِمْ))[1].

كَمَا أَنَّهُ أَنْكَرَ إِمَالَةَ: نَاقِدٍ وَعَاطِسٍ وَعَاصِمٍ وَعَاضِدٍ وَعَاظِلٍ وَنَاخِلٍ وَوَاعِلٍ، مَعَ أَنَّ مِنَ الْعَرَبِ مَنْ أَمَالَهَا بِدَعْوَى أَنَّهَا ((لُغَةٌ مَنْ لَا يُؤْخَذُ بِلُغَتِهِ))[2].

وَمِمَّا مَنَعَ سيبويه الإِمَالَةَ فِيهَا الأَدَوَاتُ وَعَلَّلَ ذَلِكَ بِأَنَّ العَرَبَ يُفَرِّقُونَ بَيْنَ أَلِفَاتِهَا وَبَيْنَ أَلِفَاتِ الأَسْمَاءِ، قَالَ: ((وَمِمَّا لَا يُمِيلُونَ أَلِفَهُ (حَتَّى) وَ(أَمَّا) وَإِلَّا فَرَّقُوا بَيْنَهَا وَبَيْنَ أَلِفَاتِ الأَسْمَاءِ نَحْو: (حُبْلَى) وَ(عَطْشَى)))[3].

وَقَدْ عَلَّقَ أَبو سَعِيد السِّيرافِيُّ عَلَى مَا ذَكَرَهُ سيبويه مِن إِمَالَةِ مَا لَا يَنْبَغِي أَنْ يُمَال فِي القِياسِ.

وَالَّذِي حَكَاهُ سيبويه عَنْ قَوْمٍ مِنَ الْعَرَبِ إِمَالَتَهُ مِن أَمْثَال: طَلَبَنَا وَعَنَبا[4]، وَقَوْل بَعْضِهِم رَأَيْتُ عِرْقَا وَضِيقَا، حَيْثُ عَلَّلَ سيبويه ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ((فَشَبَّهُوهَا بِأَلِفِ حُبْلَى))[5] وَهَذَا التَّعْلِيلُ بِلَا شَكٍّ نَاقِصٌ لَا يَشْفِي الْغَلِيلَ وَلَا يُبْرِئُ الْعَلِيلَ، لَكِنَّ السِّيرافِيَّ كَشَفَ الغُمُوضَ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: ((وَقَوْلُهُ فَشَبَّهُوهَا بِأَلِفِ حُبْلَى... إلخ يُرِيدُ أَنَّ الَّذِينَ أَمَالُوا شَبَّهُوا هَذِهِ الأَلِفَ لَمَّا وَقَعَتْ طَرَفًا بِأَلِفِ التَّأْنِيثِ الْمَقْصُورَةِ، وَلَا خِلَافَ فِي جَوَازِ إِمَالَةِ الأَلِفِ الْمَقْصُورَةِ لِلتَّأْنِيثِ؛ لأَنَّهَا تَنْقَلِبُ يَاءً فِي التَّثْنِيَةِ))[6].

وَمِمَّا مَنَعَ سيبويه الإِمَالَةَ فِيهَا (الرَّاء) فِي مِثْلِ: رَاشِدٍ وَفِرَاشٍ، وَعَلَّلَ مَنْعَ هَذِهِ الرَّاءَاتِ مِنَ الإِمَالَةِ؛ ((كَأَنَّهُمْ قَدْ تَكَلَّمُوا بِرَاءَيْنِ مَفْتُوحَتَيْنِ فَلَمَّا كَانَتْ كَذَلِكَ قَوِيَتْ عَلَى نَصْبِ الأَلِفَاتِ))[7].

وَمِنْ هُنَا أُسَجِّلُ مَا قَرَّرَهُ سيبويه وَأُلَخِّصُهُ بِمَا يَأْتِي:

---

(١) الكتاب ٢/٢٦٤ب.

(٢) الكتاب ٢/٢٦٤ب، وانظر علم اللغة العربية ٢٢٧-٢٢٨.

(٣) الكتاب ٢/٢٦٧ب.

(٤) الكتاب ٢/٢٦٧ب.

(٥) الكتاب ٢/٢٦٧ب.

(٦) هامش كتاب سيبويه ٢/٢٦٧ب.

(٧) الكتاب ٢/٢٦٧ب.

١ - إِنَّ حُرُوفَ الاسْتِعْلاءِ تمنع الإِمَالَةَ إِذَا كَانَ حَرْفٌ مِنْهَا قَبْلَ الأَلِفِ وَالأَلِفُ تَلِيهِ، كَـ(قَاعِدٍ، وَغَائِبٍ، وَخَامِدٍ) أَوْ بَعْدَ أَلِفٍ تَلِيهَا كَـ(نَاقِدٍ وَعَاطِسٍ وَعَاصِمٍ وَعَاضِدٍ، وَعَاطِلٍ، وَنَاخِلٍ، وَوَاغِلٍ.

٢ - وَكَذَلِكَ إِذَا كَانَتْ بَعْدَ الأَلِفِ بِحَرْفٍ وَذَلِكَ نَحْوَ : نَافِخٍ و نَابِغٍ وَ نَافِقٍ.

٣ - وَكَذَلِكَ إِذَا كَانَ بَعْدَهَا بِحَرْفَيْنِ وَذَلِكَ نَحْوَ : مَنَاشِيطَ وَ مَنَافِيخَ وَ مَعَالِيقَ[1].

٤ - وَمِمَّا يَمْنَعُ الإِمَالَةَ اتِّصَالُ الرَّاءِ بِالأَلِفِ مَفْتُوحَةً أَوْ مَضْمُومَةً نَحْوَ: رَاشِدٍ، وَفِرَاشٍ، وَهَذَا حِمَارٌ[2].

وَالَّذِي يَبْدُو لِي أَنَّ لِلإِمَالَةِ عَلاقَةً قَوِيَّةً بِنَفْسِيَّةِ الْمُتَكَلِّمِ أَوَّلاً وَبِالْمَعْنَى الْمُرَادِ الْمَقْصُودِ ثَانِياً، وَالَّذِي يُخَيَّلُ إِلَيَّ أَنَّ الْخَلِيلَ بْنَ أَحْمَدَ الْفَرَاهِيدِيَّ -أَكْبَرَ عَقْلِيَّةٍ عَرَفَهَا التَّارِيخُ بِإِجْمَاعِ الْعُلَمَاءِ- هَذَا الرَّجُلَ حِينَمَا سَمَّى الإِمَالَةَ (بِالإِجْنَاحِ) لَمْ يَكُنْ إِطْلاقُهُ هَذَا الْمُصْطَلَحَ اعْتِبَاطاً، إِذْ إِنَّ الْمَعْرُوفَ عَنِ الْخَلِيلِ عِنْدَمَا كَانَ يُشَافِهُ الأَعْرَابَ لِيَجْمَعَ اللُّغَةَ، كَانَ يَتَسَلَّلُ إِلَى نَفْسِيَّةِ الأَعْرَابِيِّ، يَرْمُقُ حَرَكَاتِهِ وَسَكَنَاتِهِ، حَتَّى لا يَأْخُذَ اللُّغَةَ جَامِدَةً لا حَرَكَةَ فِيهَا، بَلْ يَتَوَخَّى أَنْ يُطَابِقَ بَيْنَ فَصَاحَةِ اللَّفْظَةِ وَالنَّغْمَةِ الصَّوْتِيَّةِ الَّتِي كَانَ يُؤَدِّيهَا الْعَرَبِيُّ وَهُوَ يُنْشِدُ شِعْراً أَوْ يُلْقِي خُطْبَةً.

لِذَا نَفَتْ مُصْطَلَحُ (الإِجْنَاحِ) فِي رَوْعِي، أَنَّ الْمُتَكَلِّمَ عِنْدَمَا يُمِيلُ فَهُوَ يُصَوِّرُ فِي كَلامِهِ حَرَكَةَ (الطَّائِرِ) الَّذِي يُحَلِّقُ فِي السَّمَاءِ ثُمَّ تَرَاهُ يُجْنِحُ بِجَنَاحَيْهِ مِنْ حَالَةِ الاسْتِوَاءِ إِلَى حَالَةِ الْمَيَلانِ، وَكَذَا الْمُتَكَلِّمُ فَهُوَ (يُجْنِحُ) بِشِدْقِهِ إِلَى الأَسْفَلِ (الْكَسْرِ).

وَالَّذِي يُنْعِمُ النَّظَرَ فِي كِتَابِ اللهِ الْعَظِيمِ، يَرَى مِثْلَ هَذِهِ الْمَعَانِي مَاثِلَةً فِي كَثِيرٍ مِمَّا أُمِيلَ وَمَا أَمَالَهُ الْقُرَّاءُ مِنَ الآيَاتِ الْكَرِيمَاتِ، وَلْنَأْخُذْ شَاهِداً وَاحِداً مِمَّا أَمَالَهُ الْقُرَّاءُ وَأَسْهَبُوا فِي ذِكْرِ عِلَلِ الإِمَالاتِ مِمَّا ذَكَرَهُ النُّحَاةُ وَغَيْرُهُم دُونَ النَّظَرِ إِلَى ((تَذَوُّقِ النَّصِّ الْقُرْآنِيِّ)) مِنْ خِلالِ تَذَوُّقِ الأُسْلُوبِ وَالْكَلامِ الْعَرَبِيِّ، وَالَّذِي بِهِ نَزَلَ التَّنْزِيلُ.

وَلْنَأْخُذْ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِاهَا وَمُرْسَاهَا﴾[3].

---

(١) الكتاب ٢/٢٦٥ب.

(٢) الكتاب ٢/٢٦٧ب.

(٣) هود، ٤١، أنظر: الظواهر الصوتية والصرفية والنحوية في قراءة الحدري، والقراءات الشاذة لابن خالويه ٦٠ ، أَمَالَ (مَجْرِيها) مع فتح الميم؛ حفص وحمزة والكسائي، وَلَم يُمِل (حَفْص) في القرآن غيرها، وأَمَالَ (مُرْسِيها) حمزة والكسائي، أنظر: إتحاف فضلاء البشر ٢٥٦.

وَالَّذِي يُخَيَّلُ إِلَيَّ وَأَتَصَوَّرُهُ أَنَّ فِي نَفْسِ الَّذِي أَمَالَهَا شَيْئًا أَرَادَ أَنْ يُفْصِحَ وَيُفَسِّرَ مَا عَنَاهُ نُطْقًا فَلَم يَتَمَكَّن، فَرَسَمَهُ صُورَةً قُرآنِيَّةً لَطِيفَةً فَقَالَ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا﴾ فَأَمَالَ (مَجْرِيهَا) لأَنَّ السَّفِينَةَ حِينَمَا تُبْحِرُ؛ تُبْحِرُ مَائِلَةً وَكَذَا الزَّوَارِقُ الصَّغِيرَةُ، وَكَذَلِكَ الحَالُ فِي (مُرْسِيهَا)؛ لَمَّا رَأَى أَنَّ السَّفِينَةَ تَرْسُو بِشِكْلٍ جَانِبِيٍّ لَا عَلَى رَأْسِهَا وَأَنَّهَا (تَجْنَحُ) عِنْدَ الإِرْسَاءِ؛ أَمَالَهَا لهذا الغرض.

ثالثا: التَّنْغِيم:

وَهُوَ تَغْيِيرَاتٌ صَوْتِيَّةٌ تَنْتَابُ صَوْتَ المُتَكَلِّمِ، فَيَرْتَفِعُ تَارَةً وَيَنْخَفِضُ أُخْرَى وَيَكُونُ ذَلِكَ مُرْتَبِطًا بِنَفْسِيَّةِ وَمَشَاعِرِ وَاحْسَاسَاتِ المُتَكَلِّمِ فَيُعَبِّرُ مِن خِلَالِ تِلْكَ النَّغْمَةِ عَنْ مَشَاعِرِ الْفَرَحِ وَالْغَضَبِ وَالنَّفْيِ وَالإِثْبَاتِ، وَالتَّهَكُّمِ وَالسُّخْرِيَةِ وَالاسْتِهْزَاءِ، وَالاسْتِغْرَابِ وَالتَّعَجُّبِ.

وَقَدْ عَرَفَ الْعَرَبُ هَذا الْعُنْصُر مِن عَنَاصِرِ الجُمْلَةِ العَرَبِيَّةِ، وَلَاحَظَتْ دِلَالَةَ النَّغْمَةِ عَلَى الْمَعْنَى، فَالْجُمْلَةُ الْوَاحِدَةُ قَدْ يَخْتَلِفُ مَعْنَاهَا بِاخْتِلَافِ النَّغْمَةِ كَأَنْ تَقُول: ((زَيْدٌ عِنْدَهُ مَالٌ)) وَتَشُدُّ صَوْتَكَ عَلَى ((مَال)) وَتُفَخِّمُ الصَّوْتَ فِيهِ فَيَكُون الْمَعْنَى: أَنَّهُ ذو مَالٍ كَثِير، أَوْ مُتَعَدِّدٍ أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ، وَتَقُول: ((عِنْدَهُ مَالٌ)) وَتُرَقِّقُ الصَّوْتَ وَتَكْسِرُهُ، فَيَكُون مَعْنَاهَا أَنَّهُ ذو مَالٍ قَلِيلٍ لَا يُعْتَدُّ بِهِ)[1].

وَالَّذِي يَدُلُّنَا عَلَى أَنَّ ((التَّنْغِيمَ)) كَانَ مِمَّا تَوَسَّعُوا فِيهِ هُوَ مَا سَاقَهُ ابْنُ جِنِّي فِي ((الخَصَائِص)) وَمَثَّلَ بِأَمْثِلَةٍ سِيبويه الَّتِي أَشَارَ إِلى مَوَاطِنِ التَّوَسُّعِ فِي مِثْلِهَا إِذْ قَالَ: ((وَقَد حُذِفَتْ الصِّفَةُ وَدَلَّتِ الحَالُ عَلَيْهَا، وَذَلِكَ فِيمَا حَكَاهُ صَاحِبُ الكِتَابِ مِنْ قَوْلِهِم: مُرَّ عَلَيْهِ لَيْلٌ[2]؛ وَهُمْ يُرِيدُونَ لَيْلٌ طَوِيلٌ؛ وَكَأَنَّ هَذا إِنَّمَا حُذِفَتْ فِيهِ الصِّفَةُ لِمَا دَلَّ مِنَ الحَالِ عَلَى مَوْضِعِهَا. وَذَلِكَ أَنَّكَ تَحِسُّ فِي كَلَامِ القَائِلِ لِذَلِكَ مِنَ التَّطْوِيحِ وَالتَّطْرِيحِ وَالتَّفْخِيمِ وَالتَّعْظِيمِ مَا يَقُومُ مَقَامَ قَوْلِهِ: ((طَوِيلٌ)) أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ.

وَأَنْتَ تَحِسُّ هَذا مِنْ نَفْسِكَ إِذَا تَأَمَّلْتَهُ، وَذَلِكَ أَنْ تَكُونَ فِي مَدْحِ إِنْسَانٍ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ فَتَقُولُ: ((كَانَ وَاللهِ رَجُلًا))! فَتَزِيدُ فِي قُوَّةِ اللَّفْظِ بِـ((اللهِ)) هذِهِ الكَلِمَة، وَتَتَمَكَّن فِي

---

(١) معاني النحو ١/١١، وانظر: الخصائص ٢/٣٧٠-٣٧١.

(٢) الكتاب ١/١١٥ب.

تَمْطِيطِ اللَّامِ وَإِطَالَةِ الصَّوْتِ بِهَا وَعَلَيْهَا، أي: رَجُلاً فَاضِلاً أَوْ شُجَاعًا أَوْ كَرِيمًا أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ.

وَكَذلِكَ تَقُولُ: سَأَلْنَاهُ فَوَجَدْنَاهُ إِنْسَانًا! وَتُمَكِّنُ الصَّوْتَ بِإِنْسَانٍ وَتُفَخِّمُهُ، فَتَسْتَغْنِي بِذلِكَ عَن وَصْفِهِ بِقَوْلِكَ: إِنْسَاناً سَمْحًا أَوْ جَواداً أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ.

وَكَذلِكَ إِنْ ذَمَمْتَهُ وَوَصَفْتَهُ بِالضِّيقِ قُلْتَ: سَأَلْنَاهُ وَكَانَ إِنْسَانًا! وَتَزْوِي وَجْهَكَ وَتُقَطِّبُهُ، فَيُغْنِي ذَلِكَ عَنْ قَوْلِكَ: إِنْسَانًا لَئِيمًا أَوْ لَحِزًا أَوْ مُبَخَّلاً أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ.»[1].

وَإِذَا حَلَّلْنَا نَصَّ ابْنِ جِنِّي هَذَا، فَإِنَّنَا نَرَاهُ قَدْ أَشَارَ إِلَى مَسْأَلَةِ «الْحَذْفِ» فِي الكَلَامِ لِقَرِينَةٍ حَالِيَّةٍ تَتَطَلَّبُهَا ظُرُوفُ الكَلَامِ وَمَقَامُهُ، وَهُوَ مَا يُعْرَفُ بِسِيَاقِ الحَالِ، كَمَا أَنَّ إِشَارَتَهُ إِلَى مَا سَمَّاهُ بِالتَّطْوِيحِ وَالتَّطْرِيحِ وَالتَّفْخِيمِ وَالتَّعْظِيمِ، أَوْ قَوْلَهُ: وَتَتَمَكَّنُ مِنْ تَمْطِيطِ اللَّامِ، وَإِطَالَةِ الصَّوْتِ بِهَا وَعَلَيْهَا... فَإِنَّ ذَلِكَ إِدْرَاكٌ دَقِيقٌ مِنْهُ فِي فَهْمِ ظَاهِرَةِ التَّنْغِيمِ الصَّوْتِيَّ فِي الْعَرَبِيَّةِ وَإِنْ لَمْ يُصَرِّحْ بِهَا.

فَضْلاً عَنْ أَنَّهُ اسْتَعَانَ بِأَمْثِلَةِ سيبويه فِي الكِتَابِ مِنْ مِثْلِ قَوْلِهِ: (سِيرَ عَلَيْهِ لَيْلٌ)، وَهُمْ يُرِيدُونَ لَيْلٌ طَوِيلٌ.

---

(١) الخصائص ٢/٣٧٠-٣٧١، وانظر: معاني النحو ١/١١-١٢، وانظر: في البحث الصوتي عند العرب ٦٦.

المبحث الثاني
المستوى الصرفي والدلالي

تَندرِجُ تَحتَ هذا المستوى مَبَاحِثُ الترادُفِ والاشتِقاق والنَّحت والتَّضاد وغَيرِهَا فَضْلاً عَن كثيرٍ مِنَ المسائِلِ الأُخَرِ الَّتي يَطُولُ البَحثُ فِيهَا وَسَنقِفُ هُنا على مَبْحَثيـــنِ اثنينِ يُعَدَّانِ مِن أهمِّ مَا يُثرِي اللُّغةَ ويَزيدُها توسُّعاً ونَماءً وَهُمَا:

أولاً: الترادف:

يُعَدُّ التَّرادُف مِنَ الظواهِرِ اللغويَّةِ التي تَشْتَمِلُ على سَعةٍ في التَّعبيرِ ودِقَّةٍ فـــي إيقاعِ لَفْظتينِ عَلى معنًى واحِدٍ، وذلِكَ مِن خلالِ مَا أوردَهُ عُلماؤنا فـــي مُصَنَّفاتِـــهم، وأكثروا النقلَ فيهِ.

فهذا الإمامُ السيوطي ينقلُ لنا نُصوصاً مِن كَلامِ القُدماءِ فيه. قَال في ((المُزْهِـر)) (وَقَالَ قُطْرُبٌ: إنَّما أَوقَعتِ العربُ اللفظتينِ عَلى المعنى الواحد؛ لِيَدُلُّوا على اتِّســاعِهم في كلامِهم، كَما زاحفوا في أجزاء الشِّعر؛ لِيَدلّوا عَلى أَنَّ الكلامَ واسِعٌ عندهُـــم، وأَنَّ مذاهِبَه لا تضيقُ عَليهِم عِنْد الخِطاب)[1].

وَلعلَّ مِن أوائلِ الَّذين أشاروا إلى ظَاهرةِ التَّرادُفِ في اللُّغةِ سيبويهِ الَّذي نَـــصَّ عَلَى (أَنَّ مِن كَلامِهِم اختِلافُ اللَّفظينِ والمَعنى واحد...نحو: ذَهَبَ وانْطَلَقَ)[2].

وذَكَرَ العلماءُ أَنَّ مِن فَوائِدِ التَّرادُفِ: تَكثيرُ الوسَائِلِ والطُّرقِ إلى الإخبارِ عَمَّـــا في النَّفسِ أولاً، والتَّوسُّع في سلوكِ طُرقِ الفَصاحَةِ، وأساليبِ البَلاغـــةِ فـــي النَّظـــمِ والنثرِ ثانياً[3].

والترادفُ ظَاهرةٌ موجودةٌ في كثيرٍ من اللُّغات، إلّا أَنَّها في العربيةِ أكثر منْـــهُ في غيرِها، لذلكَ عَدَّها بعضُهُم مِن أبرَزِ خَصَائِصِهَا، ويبدو ذَلكَ معقولاً ومقبـــولاً إذَا عَلِمنَا أَنَّ مِن عُلمائِنا مَن أَلَّفَ كُتباً في ذلكَ .

فَابنُ خالويهِ أَلَّف كِتاباً في أسماءِ الأسد، وكتاباً آخر في أسماءِ الحَيَّةِ[4].

---

(١) المزهر ١/٤٠٠، وانظر: الترادف في اللغة ١٩٦.

(٢) الكتاب ١/٧-٨ب، ١/٢٤ هـــ ، وانظر: الأصول البلاغية في كتاب سيبويه ٢٢٤.

(٣) أنظر: المزهر ١/٤٠٦، وانظر: منهج البحث اللغوي بين التراث وعلم اللغة الحديث ١٣٦.

(٤) انظر : المزهر ١/٢٤٢، وانظر: فصول في فقه العربية ٢٧٤، وانظر : بقية من ألّف في الترادف في كتاب المزهر ١/٢٤١،٢٤٢ ، والوحيز في فقه اللغة ٣٩٨-٣٩٩.

وَالْحَق إِنَّ ظَاهِرَةَ التَّرَادُفِ لاَ يُمْكِنُ إِنْكَارُهَا فِي اللُّغَةِ الْبَتَّةَ فَاللُّغَةُ العَرَبِيَّةُ لاَ تَخْلُو مِنَ المُتَرَادِفَاتِ.

وَقَد أَجْمَعَ ((المُحْدَثُونَ مِن عُلَمَاءِ اللغُاتِ عَلى إِمْكَانِ وُقُوعِ التَّرادُفِ فِي أَيِّ لُغَةٍ مِن لُغَاتِ البَشَرِ، بَل انَّ الوَاقِعَ المُشَاهَد أَنَّ كُلَّ لُغَةٍ تَشْتَمِل عَلى بَعْضِ هَذِهِ الكَلِمَاتِ المُتَرَادِفَةِ))[1]، وَإِنْ شَكَا بَعْضُ الدَّارِسِينَ مِن صُعُوبَةِ البَحْثِ فِيهَا كَـ (جورج مور) رَائِدِ الفَلْسَفَةِ التَّحلِيلِيَةِ الإِنْجلِيزِيَّةِ المُعَاصِرَةِ، وَ (كواين) الَّذِي يُعَدُّ مِن أَكْبَرِ المَنَاطِقَةِ الأَمرِيكَان المُعَاصِرِينَ.

لَقَد دَرَسَ هَذانِ العَالِمَانِ ظَاهِرَةَ التَّرادُفِ تَحْتَ مَفْهُومِ نَظَرِيَاتِ المَعنَى وَمِن ثَمَّ خَلَصَا إِلى نَتِيجَةٍ مَفَادُهَا :الاعتِرَاف بِصُعُوبَةِ البَحْثِ فِي التَّرَادُفِ وَمِن ثَمَّ صُعُوبَةِ البَحْثِ فِي المَعْنى[2]

ثانيا: المشترك اللفظي:

إِنَّ الذِي تَقَرَّرَ عِنْدَ فُقَهاءِ اللُّغَةِ هُوَ أَنَّ الكَلِمَةَ يَكُونَ لَهَا مِنَ المَعَانِي بِقَدْرِ مَا يَكُونَ لَهَا مِنَ الاسْتِعْمَال، وَإِذَا كُنَّا قَدْ لاَحَظْنَا سَعَةَ العَرَبِيِّ فِي المُتَرادِفَاتِ مِن خِلاَلِ إِظْهَارِ الفُروقِ الدَّقِيقَةِ بَيْنَ الأَلْفَاظِ الَّتِي يُظَنُّ فِيهَا التَّرادُف، فَانَّهُم يَعْتَقِدونَ ذَلِكَ كَذَلِكَ فِي الأَلْفَاظِ المُشْتَرَكَةِ وَالَّتِي غَلَبَ عَلى ظَنِّهِم أَنَّ فِي هَذهِ الأَلْفَاظِ اشْتِرَاكًا. (فَكَمَا يَتَّسِعُ التَّعْبِيرُ فِي العَرَبِيَّةِ عَن طَرِيقِ التَّرادُفِ –سَوَاءً أَبْولِغَ فِيهِ فَكَانَ لِلْمُسَمَّى الوَاحِدِ أُلُوفٌ مِنَ الأَسْمَاءِ، أَمْ اقْتُصِرَ مِنْهُ عَلى الأُمورِ الهَامَّةِ وَالْتُمِسَت الفُروقُ فِي سَائِرِهِ- لاَ بُدَّ أَنْ يَتَّسِعَ التَّعبِيرُ عَن طَرِيقِ الاشْتِرَاكِ، سَوَاءٌ أَسُلِّم ورودُه فِي العَرَبِيَّة عَلى سَبِيلِ الحَقِيقَة، أَوْ الْتُمِسَتْ لَهُ مَعَانٍ مُتَطَوِّرَة عَلَى سَبِيلِ المَجَازِ)[3].

وَكَانَ (أَكْثَرُ العُلَمَاءِ يُعَلِّلونَ وُجُودَ المُشْتَرَكِ فِي اللُّغَةِ بِالاسْتِعَارَةِ وَالمَجَازِ ، فَعِنْدَ هَؤلاَءِ أَنَّ اللَّفْظَ لَمْ يَكُنْ لَهُ غَيْرَ مَعْنًى وَاحِدٍ عَلَى سَبِيلِ الحَقِيقَةِ، ثُمَّ تَضَمَّنَ مَعَانِيَ أُخرى عَلَى سَبِيلِ الاسْتِعَارَةِ وَالمَجَازِ)[4].

---

(١) في اللهجات العربية ١٧٨، وانظر: فصول في فقه العربية ٢٨٤.

(٢) انظر: في فلسفة اللغة ٩٥-١٠٦، وانظر: مباحث في علم اللسانيات ١٩٣-١٩٤.

(٣) دراسات في فقه اللغة ٣٠١-٣٠٢.

(٤) الوجيز في فقه اللغة ٣٨٩، فكلمة ((العَيْن)) مثلا لم يكن يقصد بها غير العين الناصرة، في الحقيقة، ثم استعملت لمنبع الماء تشبيهاً له بتلك على سبيل الاستعارة ثم أطلقت على الذات وعلى الجاسوس من باب إطلاق الجزء وإرادة الكل.

وَقد عَقَدَ البَاحِثُونَ المُحْدثُونَ فُصُولاً مُطَوَّلَةً فِي مُؤَلَّفَاتِهِم أَشَارُوا فِيهَا، إِلَى أَنَّ التَّرَادُفَ وَالْمُشْتَرَكَ وَالتَّضَادَّ مِنَ الظَّواهِرِ الَّتِي تَزِيدُ مِنْ ثَرْوَةِ اللُّغَةِ وَنَمَائِها.

فَالدُّكتور صُبْحِي الصَّالِح عَقَدَ فَصْلاً كَامِلاً فِي كِتَابِهِ ((دِرَاسَاتٌ فِي فِقْهِ اللُّغَةِ)) سَمَّاهُ: ((اتِّسَاعُ العَرَبِيَّةِ فِي التَّعْبِيرِ))[1] أَبْتَدَأَهُ بِالتَّرَادُفِ، وَثَنَّاهُ بِالْمُشْتَرَكِ اللَّفْظِيِّ وَخَتَمَهُ بِالتَّضَادِّ. وَذَكَرَ أَنَّنَا (حِينَ نَصِفُ العَرَبِيَّةَ بِسَعَةِ التَّعْبِيرِ، وَكَثْرَةِ المُفْرَدَاتِ وَتَنَوُّعِ الدِّلالاتِ، وَحِينَ نَجْتَزِئُ أَكْثَرَ مِن هَذا فَنَزْعَم أَنَّ لُغَتَنا فِي هَذا البَاب أَوْسَعُ اللُّغَاتِ ثَرْوَةً وَأَغْنَاها فِي أُصولِ الكَلِماتِ الدَّوَالِّ عَلى مَعَانٍ مُتَشَعِّبة، قَدِيمَةٍ وَحَدِيثَةٍ -جَدِيرٌ بِنَا أَنْ نَذْكُرَ أَنَّ اللُّغَاتِ جَمِيعًا، دونَ اسْتِثْناءٍ، تَزْدَادُ ثَرْوَتُهَا وَتَبْلُغُ مُفْرَدَاتُها مِنَ الْكَثْرَةِ حَدّاً لاَ نِهَايَةَ لَهُ إِذَا كُتِبَ لَهَا مِنْ شُروطِ النَّماءِ وَالحَياةِ وَالخُلودِ مَا كُتِبَ لِلعَرَبِيَّةِ.

فَقَد أُتِيحَ لِلُغَةِ القُرْآنِ مِنَ الظُّروفِ وَالعَوامِلِ مَا وَسَّع مِن طَرائِقِ اسْتِعْمالِها وَأَسَالِيبِ اشْتِقَاقِها، وَتَنَوُّعِ لَهَجَاتِها، فَانْطَوَتْ مِن هَذا كُلِّهِ عَلى مَحْصُولٍ لُغَوِيٍّ لاَ نَظِيرَ لَهُ فِي لُغَاتِ العَالَمِ))[2].

وَقَد عَلَّلُوا اندِرَاجَ التَّرادُفِ وَالْمُشْتَرَكِ اللَّفْظِيِّ تَحْتَ بَابِ التَّوَسُّعِ فِي العَرَبِيَّةِ إِلى كَثْرَةِ المُشْتَرَكِ وَالتَّرادُفِ فِي لُغَتِنا، فَنَصُّوا فِي دِراساتِهِم عَلى أَنَّ ورودَهُ بِهذِهِ الكَثْرَةِ ((هِيَ الَّتِي تَجْعَلُ المُشْتَرَكَ مُنْدَرِجًا تَحْتَ اتِّسَاعِ العَرَبِيَّةِ فِي التَّعْبِيرِ عَلى أَنَّهُ خَصِّيصَةٌ لاَ تُنْكَرُ مِن خَصَائِصِهَا الذَّاتِيَّةِ))[3].

ثالثا: التذكير والتأنيث:

ـ تأنيث الفعل:

قَالَ سيبويه: ((وَسَمِعْنَا مِنَ العَرَبِ مَنْ يَقولُ مِمَّن يُوثَقُ بِـهِ: (اجْتَمَعَتْ أَهْلُ اليَمَامَةِ)؛ لأَنَّه يَقُول فِي كَلامِهِ: ((اجْتَمَعَتِ الْيَمَامَةُ))، يَعْنِي أَهْلَ اليَمَامَة، فَأَنَّثَ الفِعْلَ فِي اللَّفْظِ إِذْ جَعَلَهُ فِي اللَّفْظِ لِلْيَمَامَةِ فَتَرَكَ اللَّفْظَ يكونُ عَلى مَا يَكونُ عَلَيهِ فِي سَعَةِ الكَلامِ))[4].

---

(١) أنظر: دراسات في فقه اللغة ٢٩٢.

(٢) المصدر نفسه ٢٩٢.

(٣) دراسات في فقه اللغة ٣٠٢.

(٤) الكتاب ١/٢٦ب، ١/٥٣هـ، ١/٥٩مل.

قَالَ الفَارِسِيُّ (ت ٣٧٧هـ) بَعد أَنْ ذَكَر قَولَ سيبويه ((اجْتَمَعَت اليَمَامَةُ)) قَالَ: ((كَأَنْ يَقولُ: اَجْتَمَعت اليَمَامَةُ كثيرًا، فَيُؤنثُ الفعل لأَنَّه لَهَا ثُم أدخلَ بَينَ الفعْلِ وَبَيْنَ اليَمامَةِ ((أَهْل)) فَأَقْحَمَهُ وَجَعَلَهُ يَجري عَلى الكَثْرةِ الّتي كَانَ يَجْرِي عَلَيْها قَبْلَ إِدْخَالِهِ الأَهْل فِي الكَلَامِ))[1].

وَحَكَى سيبويه: ((ذَهَبَتْ بَعْضُ أَصَابِعِه)) فَأَنَّثَ البَعْضَ لأَنَّهُ إِصْبَعٌ في المَعْنَى[2]. أَمّا مَا أَوْرَدَهُ سيبويه مِن شَواهِدَ شِعْرِيَةٍ فَعِدَّةُ أَبياتٍ مِنْهَا قَوْلُ الشَّاعِرِ:الأعشى [من الطويل]:

وَتَشْرَقُ بِالْقَوْلِ الَّذِي قَدْ أَذَعْتَهُ كَمَا شَرِقَتْ صَدْرُ القَنَاةِ مِنَ الدَّمِ

اسْتَشْهَدَ بِهِ عَلَى تَأنيثِ فِعْلِ الصَّدرِ وَهُوَ مُذَكَّر، لأَنَّهُ مُضَافٌ إلى مُؤَنَّثٍ وَهُوَ مِنْهُ والْخَبر عَنهُ كَالخَبرِ عَمّا أُضيفَ إِليْهِ، لأَنَّ المَعنى فِي شَرِقَتْ القَنَاة وَشَرِقَ صَدْرُ القَنَاةِ وَاحِدٌ[3]. وَمِثْلُه قَوْل جَرير [من الوافر]:

إِذَا بَعْضُ السِّنِينَ تَعَرَّقَتْنَا كَفَى الأَيْتَامَ فَقْدَ أَبِي اليَتِيمِ

إِذْ إِنه أَنَّثَ ((تَعَرَّقَتْنَا)) وَ((البَعْض)) مُذَكَّر، لأَنَّ البَعْضَ مُضَافٌ إلى السِّنِين وَهِيَ مُؤَنَّثَة، وَقَدْ عَدّ ابنُ جِنّي (ت ٣٩٢) تَأنيثَ (بَعْض) شاذًا، لأَنَّهُ خُروجٌ عَن أَصْلٍ إِلى فَرْعٍ، فَمَا اسْتَجازَهُ مِن ذَلِكَ رَدّ التَّأنيثِ إلى التَّذكِيرِ، لأَنَّ التَّذكِيرَ هُوَ الأَصْل. وَرُبَّمَا عَدَّهُ أَسْهل مِن غَيْرِهِ؛ لأَنَّ بَعْضَ السِّنين سَنَةٌ، وَهِيَ مُؤَنَّثَة، وَهي مِن لَفْظِ السِّنِين[4]. وَمِمّا أَنْشَدَهُ سيبويه والتَّوسُّع فِيهِ مُتَمَكِّن قَوْل جَرير [من الكامل][5]:

لَمَّا أَتَى خَبَرُ الزُّبَيرِ تَوَاضَعَتْ سُوْرُ المَدِينَةِ والْجِبَالُ الخُشَّعُ

عَلى أَنَّ (سُورًا) اكْتَسَبَ التَّأنيثَ مِن المَدينةِ، وَلهذَا أَنَّثَ لَهُ الفِعْلَ، قَالَ الأَعْلَمُ: ((إِنّ السُّوْرَ، وإِنْ كَانَ بَعْضَ المَدينةِ، لَا يُسَمّىٰ مَدينة كَمَا يُسَمّى بَعْضُ السّنين سَنَة،

---

(١) التعليقة على كتاب سيبويه ٨٧/١، وانظر: البغداديات ٥٠٥.

(٢) أنظر: الكتاب ٢٥/١ب، ٥١/١هـ، ٩٢/١مل، وانظر: سر صناعة الإعراب ١٣/١.

(٣) أنظر: الكتاب ٢٥/١ب، ٥٢/١هـ، ٩٣/١مل، وانظر: شرح أبيات سيبويه، ليوسف بن أبي سعيد السيرافي ٥٤/١، والازهية في علم الحروف ٢٤٧.

(٤) أنظر: سر صناعة الإعراب ١٢/١، وشرح أبيات سيبويه ٥٦/١، وخزانة الأدب ٢٢٠/٤-٢٢١.

(٥) أنظر: الكتاب ٢٥/١ب، ٥٢/١هـ، ٩٤/١مل، وشرح أبيات سيبويه ٥٧/١، والنكت في تفسير كتاب سيبويه ١٨٩/١، وتحصيل عين الذهب ٧٦.

وَلكِنَّ الاتِّساعَ فِيهِ مُتَمَكِّن؛ لأَنَّ مَعْنى تَواضَعَت المَدِينَةُ وَتَواضَعَ سُوُر المَدِينَةِ مُتَقارِبٌ))[1]. وَهَذا التَّفسير يَصِحُّ مَعَ عَطْفِ الجِبَالِ عَلَى السّور. أَمّا عَلَى تَوْجِيهِ بَعْضِ النَّحْوِيينَ[2] مِنْ أَنَّ (الْجِبَال الْخُشَّع) مُبْتَدأ وَخَبَر، فَلاَ تَوسُّعَ حِينئذٍ في الكَلاَم، وَعَلى هَذا نَصَّ الأَعْلَمُ عَلى أَنَّ (الجِبَال) ((إِنْ جَعَلْتَهَا مُبْتَدأَةً لَم يَكُنْ في الكَلاَمِ اتِّساعٌ، وَيكُونَ التَّقدِيرَ، وَالْجِبَالَ خُشَّعٌ لِمَوتِه))[3].

وَمِن أَمْثِلَةِ تَأنِيثِ الْفِعْلِ مَا حَكَاهُ ابْنُ جِنّي عَنِ الأَصْمَعِيِّ عَن أَبي عَمْرِو بنِ العَلاء (ت ١٥٤هـ) أَنَّهُ سَمِعَ بَعْضَ العَرَبِ يَقولُ، وَذَكَر إِنساناً، فَقَال: فُلاَنٌ لَغُوبٌ[4]، جَاءَتْهُ كِتَابِي فَاحْتَقَرَهَا ، فَقُلتُ لَهُ: أَتقولُ: جَاءَتْهُ كِتَابي؟ فَقَالَ نَعَمْ، أَلَيْسَ بِصَحِيفَةٍ؟[5]

وَذَكَر الحَرِيرِيُّ (ت ٥١٦هـ) مَا حَكَاهُ الفَرَّاءُ قَالَ: قَالَ أَعْرابِيٌّ وَنَحْنُ فِي حَلْقَةِ يُونُسَ بنِ حَبِيبٍ بِالبَصْرةِ، أَيْنَ مَسْكَنُكَ؟ فَقُلْتُ: الكُوفَةُ، فَقَال لِي: يَا سُبْحَانَ اللهِ هَذِهِ بَنو أَسَدٍ بَيْنَ ظَهْرَانَيْكُم وَأَنْتَ تَطْلُبُ اللُّغَةَ بِالْبَصرةِ، قَالَ: فَاسْتَفَدتُ مِن كَلاَمِهِ فَائِدَتَين إِحْداهُما: أَنَّهُ قَالَ: هَذهِ وَلَم يَقُل هؤلاءِ، لأَنَّه أَشَارَ إِلى القَبِيلَةِ فَأَنَّثَ، وَالثَّانِيةُ أَنَّهُ قَالَ: ظَهْرَانَيْكُم بِفَتْحِ النُّونِ وَلَم يَقُلْهُ بِكَسْرِهَا[6].

---

(١) تحصيل عين الذهب ٧٦.

(٢) حكى البغدادي القول عن السيرافي، ونقل محقق كتاب (شرح أبيات سيبويه) القول عن ابن سيده، أنظر: خزانة الأدب ٢١٩/٤، وشرح أبيات سيبويه ٥٧/١.

(٣) تحصيل عين الذهب ٧٧.

(٤) قال ابن جني بعد أن ذكر قول أبي عمرو بن العلاء قال: فقلت له: ما اللغوب؟ فقال: الأحمق، أنظر: سر صناعة الإعراب ١٢/١.

(٥) سر صناعة الإعراب ١٢/١، وانظر: للخصائص ٢٤٩/١، وفقه اللغة في الكتب العربية ٣٠٨.

(٦) درة الغواص في أوهام الخواص ١٤٦-١٤٧.